الفصل الأول

الذكاء..ماذا يعني ؟

" الـذكاء باللُّغـة الإنجليزيَّـة والفرنسـيَّة Intelligence، وتعنـي لُغويًّا « الذهـن » Intellect، و«الفهـم» Understanding،و«الحكمـة»S agacity، وتُرجمـت للعربيَّـة بلفـظ «ذكاء».

والـذكاء لا يُمنـح للطفـل لحظـة ميـلاده، وإنمـا ينشـأ ويتكوَّن مـع مختلـف مراحـل العُمُـر، ويخضـع في ذلـك للعديـد مـن العوامـل، مثـل: مسـاهمة الوالديـن في تدعيمـه وتنميتـه، والمنـاخ الأُسـري الصالـح، ونمـط الحيـاة السـويَّة ، ورغبـة الزوجـين في إنجـاب الأطفـال، ومـن هنـا، فـإنَّ بعـض الأطفـال يُصادفـون في معيشـتهم هـذه الظـروف المواتيـة، علـي حـين يُحـرم منهـا الآخـرون، فالـذكاء لا يُعتبـر شـيئاً في ذاتـه يمكـن انتقالـه بعمليـة سـرية، وإنمـا هـو إحـدى الوظائـف الشـخصيَّة التـي تتنبـه، ثُمَّ تتكوَّن في الطفـل، وتكون في بدايـة حياتـه هشـة ضعيفـة، ثُـمَّ تُكـوِّن نفسـها بعـد ذلـك باطـراد بفعـل عوامـل عديـدة منهـا: مسـاعدة الآبـاء، والمُعلِّمـين، والبيئـة، ومـع ذلـك، فالـذكاء ليـس مُجـرَّد وظيفـة حركيـة، بـل إنَّـه كمـا يبـدو لنـا حالـة يُكيِّـف الطفـل بهـا نفسـه مـع العالـم أساسـها القيـم والفهـم، والتـي يُعبِّـر مـن خلالهـا الطفـل عـن حيويتـه وعـن حاجاتـه الطبيعيَّـة والبيولوجيَّـة. كمـا أنَّ علاقـات الطفـل مـع الآخريـن، ومـع البيئـة المحيطـة بـه تتحـدَّد في مظاهـر السـلوك الوجدانـي التـي تتواكـب مـع الـذكاء.

ولقد كان أوَّل مَنْ أشار إلي نموٍّ وتطوُّر الذكاء بتفاصيله هو عالم النفس السويسري «جان بياجيه» Jean Piaget (١٩٨٠-١٨٩٦)، فالذكاء عنده هو: « تكيُّف للبيئة، وهذا التكيُّف ما هو إلاَّ توازن بين عمليتي التمثيل والمواءمة ».

كما يصف « بياجيه » تطوُّر الذكاء بأنَّه: « عملية بناء في تركيب العناصر اللاَّزمة للتطوُّر وفقاً لنظام مُعيَّن يبدأ بتجميع هذه العناصر، وهي ما زالت بعد هشة واهية، ثُمَّ العمل علي توحيدها، لتُعد أساساً صلباً لنشاط عقلي ».

بمعني، أنَّ الذكاء يُمثل معطيات التجربة التي يمرّ بها لأطره، سواء أكانت بنيات حركية أو مفاهيم. وعملية التكيُّف، أو بمعني آخر، عملية تنظيم المعطيات بقطبيها: التمثيل والمواءمة ــ وهي كُلّ موحد ــ يُعلن عن نشاط متكامل لعمل الذكاء، عمل يستمر باستمرار حياة الفرد، هدفه تكوين بنيات عقليَّة متباينة، ونوعية هذه البنيات تُحدِّد مرحلة النموّ العقلي المعرفي، والتي وصل إليها الطفل، أو الكائن البشري، ولذلك فالتمثيل نشاط للذكاء يكشف عن تكوين البنيات العقليَّة، وهو يحكم الحقائق والمعارف، وهنا ينشط الطفل ذو الطابع المنطقي الرياضي، أمَّا المواءمة، فهي نشاط إشاري للذكاء، أي تجريب واستنباط للواقع يكشف عن نمط وعي الطفل بتكوين البنيات العقليَّة، أي يكشف عن مدي

تعقُّل الطفل لنشاطه وأفعاله وللعمليات العقليَّة التي يقوم بها أثناء تفاعله مع البيئة.

ويمثل الآن اتجاه سائد في أوساط علم النفس، بأنَّ الذكاء هو: « قدرةٌ فطريةٌ ومكتسبةٌ في آنٍ واحد، فالصفة الفطرية هي الصفة الثابتة نسبياً، أي التي لا تستطيع عوامل البيئة العادية أن تغيرها إلاَّ في حدود ضيقة، في حين أنَّ الصفة المكتسبة هي الصفة المرنة التي تستطيع عوامل البيئة أن تغيُّرها كثيراً أو تمحوها ». وأيضاً، وبصيغةٍ أخري: « الذكاء طاقة فطرية تولد مع المرء، ولكن هذه الطاقة لن تصل إلي تحقيق كُلّ إمكاناتها ولا تتفتح التفتُّح الكافي إلاَّ بالتربيَّة والعناية والثقافة ». وأيضاً تُعلن وجهة النظر هذه أنَّ:« مكونات الشخصيَّة تتأثَّر بعاملي البيئة والوراثة معاً، ولكن بدرجات متفاوتة».

وهناك مَنْ يري أنَّ البيئة تلعب الدور الأهم في تأكيد الذكاء مثل الفيلسوف التجريبي الإنجليزي« جون لوك» ١٧٠٤)-(١٦٣٢ John Locke في قوله: « إنَّ الإنسان يولد وعقله صحيفة بيضاء تُنقش عليها البيئة ما تريد من خبرات مُتعلَّمة، والتصرُّف الذكي وليد لهذا التعلُّم ».

وقد أكَّد العالم الأمريكي مؤسِّس المدرسة النفسيَّة المعروفة باسم السلوكية « جون واطسون» John Watson (١٩٥٨-١٨٧٨)،

أنَّه: « ليس هناك شيء يدعي وراثة المواهب أو المِزاج أو التكوين العقلي».

♦ تعريف الذكاء:

هناك عدة تعريفات مرجعية للذكاء،سوف نوجزها في التالي:

أولاً: التعريف الوظيفي للذكاء:

عرَّف العَالِم الفرنسي« جون كالفن» John Calvin (١٥٦٤-١٥٠٩) ، الذكاء بأنَّه: « القدرة علي التعلُّم، فأذكي اثنين أقدرهما علي التعلُّم وعلي تطبيق ما تعلَّمه »، كما أنَّ الذكاء عنده هو القدرة علي التعلُّم واستخدام الفرد ما تعلَّمه في التكيُّف لمواقف جديدة، أي حلّ مشكلات جديدة.

وعرَّف « هنري جودارد » Henry-١٩٥٧ Goddard (١٨٦٦)، الذكاء بأنَّه: «القدرة علي الاستفادة من الخبرات السَّابقة في حلِّ المشاكل الحاضرة والتنبؤ بالمشكلات المستقبليَّة ». كما عرَّفه عالم النفس الألماني «وليام لويس شتيرن» William Lewis Stern (١٩٣٨-١٨٧١)، بأنَّه:« القدرة علي التكيُّف العقلي للمشاكل ولمواقف الحياة الجديدة، أي قدرة الفرد علي تغيير سلوكه حين تقتضي الظروف الخارجيَّة ذلك».

وعرَّفه العَالِم الأمريكي رائد علم النفس التربوي « لويس تيرمان» Lewis Terman (١٨٧٧- ١٩٥٦)، بأنَّه: « القدرة علي التفكير المُجرَّد، أي علي التفكير بالرموز من ألفاظ وأرقام مُجرَّدة عن مدلولاتها الحسيَّة ».

أمَّا عالم النفس النمساوي الشهير« ولفجانج كوهلر» Wolfgang Kohler (١٨٨٧-١٩٦٧). فعرَّف الذكاء، بأنَّه: « القدرة علي الاستبصار ».. وهذا التعريفات تدور كُلَّها حول وظيفة الذكاء في حياة الإنسان.

ثانيا: التعريف البنائي للذكاء:

يقول العَالِم الفرنسي، وأبو الحركة المعاصرة في قياس الذكاء «ألفريد بينيه» Alfred Binet (١٨٥٧-١٩١١)،: « إنَّ الذكاء هو القدرة علي الحكم السليم، ويتألف من قدرات أربع هي: الفهم ــ الابتكار ــ النقد ــ القدرة علي توجيه الفكر في اتجاه مُعيَّن واستبقائه فيه قبل تنفيذ عدة أوامر متتالية واحد بعد آخر ».

ويُعلن عَالِم النفس البريطاني « تشارلز سبيرمان » Spearman Charles ١٩٤٩-(١٨٦٣) أنَّ الذكاء: « قدرة فطرية عامَّة، أو عامل يؤثِّر في جميع أنواع الأنشطة العقلية».

أمَّا العَالِم الأمريكي، صاحب نظرية المثير والاستجابة « إدوارد لي ثورنديك » Edward Lee Thorndik (١٨٧٤-١٩٤٩)، فيُعرِّف الذكاء بأنه: « عددٌ كبيرٌ من قدرات خاصَّة مستقل بعضها عن بعض، وأنَّ ما نسميه (ذكاء) ما هو إلاَّ المتوسط الحسابي لهذه القدرة عند الفرد ».

ويُعرِّف العَالِم الأمريكي، رائد القياسات النفسيَّة المعاصرة « لويس ليون ثيرستون» Louis Leon Thuirston (١٨٨٧-١٩٥٥) الذكاء، فيقول: « إنَّ الذكاء يتألَّف من بضع قدرات عقلية أولية». وكُلّ هذه التعريفات تدور حول بناء الذكاء، وأركان ذلك البناء.

♦ الذكاء..والعبقرية:

كلمة عبقري جاءت من وادي عبقر،وهو وادٍ ظهر فيه كثير من الأذكياء، فالشخص العبقري، هو الذي تتوافر فيه سمات خاصة مثل: الطموح، والثقة بالنفس، والرغبة في التفوق، والقدرة علي التركيز الشديد، وتحمُّل المشاق. ومن سمات العبقرية الرئيسة: الإبداع، الابتكار، السبق، التفرُّد، الامتياز. كما أنَّ العبقري يقدر علي إحداث تغيير مبتكر في ناحيةٍ من نواحي الحياة الاجتماعيَّة أو السياسيَّة أو العلميَّة أو الفنيَّة أو الأدبيَّة..الخ.

فالعبقرية، إذاً، تعني الذكاء في أوسع معانيه، لكنَّه الذكاء المقترن بالاكتشاف والاختراع والإبداع ، فالعبقرية هي الذكاء الظاهر بأشياءٍ ملموسة.

وكان الإبداع يعتبر إلي عهدٍ قريبٍ مرادفاً لحِدة الذكاء، فكان ذو الذكاء الرفيع يُسمىّ «عبقرياً» Genius، وكان الطفل متوقد الذكاء يُسمىّ« موهوباً» Talented (gifted).

أي أنَّ العبقرية ما هي إلاَّ نتيجة للذكاء الحاد، ويظهر ذلك من قول أوَّل وزير للذكاء في العالم وهو الفنزويلي « لويس ألبرتو ماتشادو »Luis Alberto Machado (١٩٣٢-٢٠١٦) ، حيث يقول: « إنَّ العبقرية يمكن خلقها بتربية مناسبة، وإنَّ النظام التعليمي الحالي لا يُعلِّم الأطفال أن يكونوا أذكياء ». وقد أكَّد في كتاباته حول هذا الموضوع أنَّ القيود الواضحة على الذكاء خاطئة وترتبط في المقام الأوَّل بالتربية والتكيُّف الاجتماعي. وقال إنَّه من خلال التحفيز البيئي، لاسيما في المراحل المبكرة من نموّ الطفل،يمكن تطوير الذكاء لأجل غير مسمى وبشكل مضاعف طوال الحياة.

♦ الذكاء..والابتكار:

الابتكار هو المقدرة على تطوير فكرة، أو عمل، أو تصميم، أو أسلوب،أو أي شيء آخر وبطريقةٍ أفضل وأيسر وأكثر استخداماً

وجدوى، وهناك لبس كبير بين« الابتكار»، و«الاختراع » عند عموم الناس؛ فالاختراع هو إيجاد الفكرة أو التصميم أو الأسلوب من العدم، بحيث أنَّه لم يكن له مثيل من قبل، وليس شرطاً أن يكون الاختراع قابلاً للتنفيذ فإذا ما عُدل عليها وأضيف لها تحسينات تسمى هذه الإضافات بالابتكار.

ولكي يكون الشخص مبتكراً لابدّ من أن يتمتَّع بعدة صفات أبرزها:

- المبادرة والريادة.
- الدافعية للإنجاز.
- الإحساس بالمسؤولية.
- التفكير الإيجابي.
- المقدرة على التشارك والتفاعُّل مع الآخرين.
- الإصرار والمثابرة.
- الطموح والهمة العالية.
- الثقة بالنفس والشعور بالقدرة على تحقيق إنجاز ما.

فالشخص المبتكر هو الشخص الذي يمتلك صفات الشخصيَّة الابتكارية ويسعى لتحقيق حُلمه وتحويله إلى شيءٍ حقيقي ملموس يمكن الاستفادة منه ويعود بالنفع عليه وعلى المجتمع.

والابتكار قد يكون شكلاً من أشكال الذكاء، وقد يكون مقدمة له، كما قد يكون نتيجة له أيضاً، ولكنَّه ليس هو الذكاء علي وجه الدقة. فالابتكار له عدة جوانب يتكوَّن منها،و هي علي النحو التالي:

- **الطلاقة:** وتعني القدرة علي إنتاج عدد كبير من الأفكار أو الأسئلة
- **المرونة:** وتعني القدرة علي إنتاج عدد كبير ومتنوع من الأفكار،والتحوُّل من نوع مُعيَّن من الفكر إلي نوع آخر.
- **الأصالة:** وهي القدرة علي التفكير بطريقةٍ جديدة، أو التعبير الفريد، والقدرة علي إنتاج الأفكار الماهرة أكثر من الأفكار الشائعة أو الواضحة.
- **الإثراء بالتفاصيل:** وهي القدرة علي إضافة تفاصيل عديدة علي فكرةٍ أو إنتاج مُعيَّن.

♦ الذكاء..والإبداع:

كان الإبداع مرادفاً للذكاء، بل لحِدة الذكاء، فكُلِّ شخص ذي ذكاء رفيع يُسميّ عبقرياً أو موهوباً، ولا شك أنَّه بين الذكاء والإبداع صلة وثيقة، غير أنَّه اتضح من الدراسات التجريبيَّة الحديثة والقياس العقلي، أنَّ الذكاء، وإن كان شرطاً ضرورياً للإبداع، إلاَّ أنَّه شرط غير كاف، فلابدّ أن يقوم إلي جانبه قدرات إبداعية مُعيَّنة تساعد علي الإبداع.

ولقد أوضحت الدراسات أنَّ اختبارات الذكاء بوضعها الحالي لا تصلح للتمييز بين المُبدعين وغير المُبدعين، ذلك أنَّ اختبارات الذكاء لا تتطلَّب جدةً في الإجابة عليها وإبداعاً، مع أنَّها تقيس القدرة علي الاستدلال إلي حدٍّ كبير.

ولقد أسفرت بعض البحوث عن وجود قدرات إبداعية مستقلة عن القدرات العقليَّة التي تقيسها اختبارات الذكاء،ومن هذه القدرات:

- **الأصالة:** وهي قدرة الفرد علي التجديد وإعراضه الدائم عن الإذعان للمألوف والمبتذل والمعتاد.
- **مرونة التفكير:** وهي قدرة الفرد علي تغيير وجهة نظره إلي المشكلة التي يعالجها بالنظر إليها من زوايا

مختلفة، ويصوِّر لنا الفيلسوف الألماني الشهير« أرثر شوبنهور» Arthur Schopenhauer (١٧٨٨-١٨٦٠) هذه المرونة بقوله: « ليس المهم أن نري شيئاً جديداً، بل الأهم أن نري معني جديداً في شيءٍ يراه كُلّ النَّاس، أي أن توحي إلينا الأشياء المألوفة بأفكارٍ جديدةٍ ».

- **الطلاقة:** وهي قدرة الفرد علي أن يتذكَّر عدداً كبيراً من الأفكار، والألفاظ، والمعلومات، والصور الذهنيَّة في سهولةٍ ويسر، وهذا يُحتم أن يكون المبدع ذا ثقافة واسعة.
- **التأليف:** وهي القدرة علي إدماج أجزاء مختلفة (معاني ــ صور ذهنيَّة) في وحدات جديدة كالتأليف والابتكار.